
دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

تأملات في واقع التصوف بالمغرب المعاصر

حكيم فضيل الإدريسي*

تقديـــم

لقد كان منطلقي في هذا العرض، رجوعي إلى ما كتب عن التصوف في المغرب المعاصر في الجرائد والمجلات، وما أذيع في بعض القنوات الإذاعية والتلفزية الوطنية والعربية والدولية، وكذلك ما طبع في الدراسات والبحوث الجامعية بحكم إشرافي على مجموعة من الأطروحات في التصوف المغربي.

واذكر أنني درست في وحدة الأديان والعقائد بدول البحر الأبيض المتوسط مادة "المقدس في المغرب" ووجهت طيلة هذه الوحدة إلى موضوع سميته: خريطة الأولياء بالدار البيضاء، وهي إحصاء زوايا وأضرحة مدينة الدار البيضاء ورصد علاقة المغربي بهذه الأماكن، وبيان حضور المقدس في التصور الشعبي، وكانت النتائج مبهرة لما تلقيته من أخبار و أفكار و صور للسلوكات والمعتقدات. وكان هذا البحث وسيلة بناءة لكي يفرق الطلبة بين التصوف الحق الأصيل الذي يزخر بالحياة الروحية والسلوكية والمعرفية والأحوال الشريفة السنية وبين سلوكات تحسب على التصوف وليست منه، فحصل لهم الفرق العلمي بهذه الشبهة.

وإذا رجعنا إلى البدايات الأولى لظهور التصوف في المغرب، ومع أحد الأعلام الكبار وهو: أبو محمد صالح الدكالي الماجري نزيل رباط أسفي، الذي قال في شأنه ابن الزيات التادلي الذي ترجم للأولياء الأموات في مقدمة كتابه لا في تراجمه انه كان معاصرا له: "وهو إلى الآن لا يفتر عن الإجتهاد

---

* أستاذ باحث-كلية الأداب بن مسيك، الدار البيضاء.

والمحافظة على الأوراد، ومن كلامه: "الفقير ليس له نهاية إلا الموت، واخبرني عنه تلاميذه بعجائب الكرامات، والكلام على الخواطر، وهو على سنن المشايخ الأول من أهل التصوف"[1].

يقول أبو محمد صالح فيما ينقله عن ابنه احمد بن أبي محمد صالح: "نظرت بعين البصيرة في معظم بلاد المغرب، قد أفل منها التصوف أفول المغرب، وكانت بها طائفة شيخنا أعظم الطوائف في المتابعة سنة وشرعا، وأزكاها و انظمها توكلا وزهدا وورعا، ثم انقرض من هذه الطائفة سلفها، وكثر فيمن بقي من خلفها بالمخالفة تخلفها.....، وتحققت أن سوق هذا الطريق قد بار و أنصاره قد ولت الأدبار، فظهر من الفتن التي ابتدعت في مواسم الخير و مواضع العبادة، والبدع التي أحدثت بالجهل من أهل الشر ومدعي الإرادة، وكلهم قد توسموا بزي الفقر، ولكنهم حجبوا عن الحقيقة بالغشاوة والوقر."[2]

إن هذا النص يحمل دلالات كبرى أرقت جفون هذا الصوفي، والصوفي كما يقال ابن وقته، فهو ينتقد حال المنتسبين إلى التصوف في زمانه، وهذا سلوك بناء وايجابي وفعال قام به الصوفية على طول تاريخ المغرب، وهو تصحيح طريق السلوك الصوفي، و النقد الذاتي المبين للزلل، الدال على الأقوام.

واذكر مثالا من المشرق و هو الإمام عبد الكريم القشيري إذ يقول: "ثم اعلموا إن المحققين من هذه الطائفة انقرض أكثرهم، ولم يبق في زماننا هذا من هذه الطائفة إلا أثرهم كما قيل:

أما الخيام فإنها كخيامهم   وارى نساء الحي غير نسائها

وقد حصل الضعف في هذه الطريقة بل اندرست، وقد مضى الشيوخ الذين كان بهم اهتداء، وقل الشباب الذين كان لهم بسيرهم و سننهم إقتداء"[3] إلا أن هذا النقد لا يدل على اندثار هذا العلم لأن كلا من أبي محمد صالح و القشيري من أهله، والحاملين للوائه والمدافعين عن أصوله، الوارثين لعلمه. ودليل ذلك أن في زمان محمد صالح كان عبد السلام ابن مشيش، وأبو الحسن الشاذلي، وأبو يعزى، وأيوب السارية شعيب، وغيرهم كثير ممن تعج بهم كتب التراجم والطبقات، وإنما هي نظرة من أراد الكمال والبلوغ إلى أعلى المقامات بتصحيح الأعمال، وسلوك طريق المنازلات، وعدم الركون إلى الجهل والدعاوى. وهذه الصفات غالبا ما تندرج على من لا شيخ لهم في الطريق يدلهم على الكمال، ويرفع هممهم ويزيل الحجب عن نفوسهم. لذلك فان كل المذاهب و التيارات الفكرية والسلوكية تخضع إلى

---

[1]- أبي العباس السبتي ليوسف بن يحيى الشاذلي المعروف بابن الزيات، التشوف إلى رجال التصوف ص41، تحقيق أحمد التوفيق، منشورات كلية الآداب الرباط، الطبعة الثانية، 1997.

[2]- أبو محمد صالح لأحمد بن أبي صالح بن نيصارن الماكري، المنهاج الواضح في تحقيق كرامات ص 9 المطبعة المصرية سنة 1352

[3]- تحقيق و إعداد: معروف زريت علي عبد الحميد البطرجي الرسالة القشيرية، ص 37/36، دار الجيل، بيروت، الطبعة الثانية 1990.

قـوانين وسـنن وجوديـة كونيـة أولهـا قـانون التحـول: وهـو التعـرض مـع عامـل التطـور الزمـاني وعامـل الاختلاف البيئي، وعامل التكوين الشخصي لان تحدث في مذهب تغيرات وتطرأ عليه تلونات، تبتعد به قليلا أو كثيرا عن أصوله ومنابعه. وثانيها قانون الدور: وهو ما من مذهب إلا يمر بمرحلتين تختص إحداهما بالاجتهاد، والتجديد والأخرى بالجمود والتقليد. وثالثها، قانون التغلب: وهو ما من مذهب إلا وهو يحقق لنفسه أكبر إمكان للتغلب على الخصم بان ينسب إليه أشنع نقص يمكن أن يوجه إليه في ظروف المواجهة، وهو ما تعرضت إليه الطرق الصوفية من هجوم من طرف خصومها، كالبدعة، والشرك، وموالاة الاستعمار، والتوظيف السياسي، والخرافة، والتزلف.... فالناظر و الباحث في تجربة التصوف المغربية يجب ألا يغفل عن هذه الحقائق و القوانين، وأن كل مرحلة لها خصائصها و أحوالها و أحكامها.

إن المتتبع لتاريخ المغرب يجد أن التصوف قد طبع الحياة المغربية بطابعه واختلط بسلوكات المغاربة، وكتب التراجم و الفقه و النوازل و الرحلة و الأدب، خير دليل على ذلك، لا يخلو مؤلف من ذكر أحوال الصوفية وعلومهم و أخلاقهم و آدابهم. وللإشارة فقد وصل عدد الزوايا بالمغرب حسب إحصاء قام به الفرنسيون إبان الحماية، ما قدره مليونان وهو رقم يدل على قوة هذا المعطى وأثره المباشر في تأطير و توجيه المغاربة، ويدل على الروحانية التي صبغت المجتمع المغربي.

إن المتتبع للشأن الصوفي في المغرب يجب أن يعلم الأمور و المعطيات التالية:

- إن كل الطرق الصوفية في المغرب لا تخرج عن أصلين ورافدين كبيرين وهما القادرية والشاذلية، ومعلوم عند المحققين في هذا الفن منزلة كل من عبد القادر الجيلاني، وأبي الحسن الشاذلي في العلم و الصلاح.

- كل طريقة من الطرق الصوفية المنتسبة لأحد هذين الأصلين، يجب النظر إلى أعمالها في إطار السياق التاريخي الذي ظهرت فيه والدور الذي قامت به تماشيا مع واقع ذلك العصر و لذلك يجب أن يفتح الباب للدراسة التاريخية للاطلاع على الأدوار التي اضطلعت بها الطرق الصوفية في كل مرحلة من مراحل التاريخ المغربي.[4]

-كل الطرق تقريبا حافظت على أهم سمة ميزت التصوف وهو الجانب الوجداني الأخلاقي المتمثل في الأذكار و الأوراد والسماع وإن غابت الأدوار الأخرى العلمية والاجتماعية والالتزام بما ورد عند مشايخ الطرق من آثار وهذه مناعة طبيعية بنيوية حفظت التصوف المغربي الخالص من الانحراف عن

4- عبد العزيز بن عبد الله انظر معلمة التصوف الإسلامي بالمغرب ج 3 (ص/206) دار المعرفة –الرباط-الطبعة الأولى 2001.

الخط الأصيل في الدعوة الصوفية ،وهو إصلاح الفرد و تخليق المجتمع وفي هذا الصدد تعد مؤلفات الصوفية وتراجمهم إطارا واضحا للوقوف على أصول كل طريقة.

- إن الباحث في التصوف المغربي يمكن أن يجد أنواعا من السلوك الصوفي منها:

أ- التصوف التبركي: ويقصد به المحافظة والالتزام بأصول الطريقة والأوراد والأحوال مع عدم وجود الشيخ الحي المربي، فيكتفي المريدون بما وصل إليهم ممن يحمل إذن التبليغ من المنتسبين إلى هذه الطريقة.

ب- التصوف التجديدي: ويقصد به اخذ الطريق على يد الشيخ المربي الحي المأذون في تربية المريدين وترقية معارفهم وإصلاح نفوسهم وأحوالهم، لذلك يعد كل شيخ من هذا الطراز مجددا في أصل من الأصلين الكبيرين، مثل الشيخ مولاي العربي الدرقاوي مجدد في الشاذلية، والشيخ ماء العينين مجدد في القادرية[5].

لقد عرف التصوف في المغرب أخيرا نهضة كبيرة، وانتعاشة ظاهرة المعالم جعلته يكون حاضرا في الأنشطة الثقافية و العلمية والفنية ومادة مهمة في وسائل الإعلام المقروءة والمسموعة والمنظورة. بل أصبح المغرب قبلة الباحثين في الحياة الروحية والتربية والمعرفة الصوفية كشاهد الطريقة القادرية البودشيشية التي أصبحت تنظم الملتقى العالمي للتصوف أيام ذكرى المولد النبوي، إذ يلتقي خبراء وعلماء وباحثون في التصوف من كل القارات للتداول و المناقشة في قضايا المجتمعات ودور التصوف في الإصلاح و التوجيه. وهي مناسبة للقاء أيضا بالشيخ حمزة القادري البودشيشي الذي عرفت الطريقة في وقته انتشارا كبيرا، والدليل على ذلك انه شكل المادة الرئيسية في كل الجرائد الصادرة بالمغرب وخارج المغرب، وأصبح حديث الباحثين والدارسين واكتسبت هذه الطريقة قوة عندما نظم مريدوها مسيرة ضخمة لتأييد الدستور،أظهرت حجم الحضور الصوفي في المغرب.كما لا ننسى حضور الطريقة التيجانية التي تشكل مركز القوة في الحياة الروحية في إفريقيا كما تأخذ الطرق الصوفية الأخرى موقعها و مكانها في تأطير المجتمع بحسب حضورها ومشاركتها في تأطيره روحيا و أخلاقيا. وهذا الأمر يحتاج إلى دراسة شاملة لحركية الطرق الصوفية في المغرب. وأمام هذه المعطيات يمكن أن نجمل أنماط الحكم و النظر إلى التجربة الصوفية بالمغرب وتصحيح التعامل مع ذلك.

---

[5]- للتوسع انظر كتاب الإحياء و التجديد الصوفي في المغرب –للدكتور أحمد بوكاري، منشورات وزارة الأوقاف و الشؤون الإسلامية –مطبعة فضالة المحمدية–الطبعة الأولى: 2006

مهرجانية وفلكلورية التصوف

وذلك بالتركيز على الجانب الموسيقي والترفيهي في التراث الصوفي بإقامة أنشطة فنية كبرى ترصد لها الميزانيات الضخمة على أساس أنها موروث ثقافي صوفي فيتم اختزال التصوف وهو العلم الشرعي القائم على مجاهدة النفس وتصفية القلب والالتزام بالأحكام، والتعرف على الحقائق الإلهية الكبرى، لنقل الفرد من عبادة النفس إلى عبادة الله وتركيز للأخلاق ولقيم الصلاح إذ بها يحفظ المجتمع من الخراب والزوال ولذلك عرف الصوفية التصوف بأنه خلق ومن زاد عليك في الخلق فقد زاد عليك بالتصوف. وأنا لا اقصد السماع الصوفي والأناشيد التي تعج بها الزوايا والمحافل فهي جزء من التجربة الصوفية يحقق الرقي والسمو الفني و الأدبي و الذوقي ولكنه لا يمثل الحقيقة الكبرى للتصوف.

وفي هذا الإطار فإن للإعلام الدور البارز في إبراز قيم التصوف الحقيقية إلا أن كثيرا من وسائل الإعلام الوطنية أبانت عن ضعف خطير وجهل كبير بأبسط أصول ومقاصد التصوف، وحقيقته عند صوفية المغرب إذ لم تفرق بين الممارسات المرتبطة بالخرافة والسلوكات النفسية، وبين العلم الأصيل.

توظيف الصوفية

وهو تقديم التصوف في صورة جبهة في وجه الحركات السلفية و المتطرفة. نعم إن التصوف درع منيع ساهم أهله تاريخيا في حفظ دعائم الصوفية الدينية والحضارية للمغرب، لكن لا يجب أن يوطن بطريقة تفقده هذه الخاصية الذاتية، لان صحته وسلامته من سلامة وصحة المجتمع.

إلا أن الجديد في المشهد الديني للمغرب، إعادة الهيكلة التي شملت جميع مناحيه ومجالاته، ودخلت الزوايا في هذا البرنامج لخصوصية المرحلة التي يمر منها المغرب للحفاظ على المصلحة العليا للدولة المتمثلة في ضبط الحقل الديني وتسييجه ضد الانقلابات الأخلاقية والفكرية وتركيز الجهود على ترسيخ دعائم و مقومات الهوية الدينية للمغرب والمغاربة المتمثلة في إمارة المؤمنين في الحكم، والمذهب المالكي في العبادات، والمذهب الأشعري في العقائد، والتصوف السني في السلوك.

ولأجل ذلك عقدت وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية اللقاء الوطني الأول للطرق الصوفية سنة 2008 والذي ضم غالب الطرق الصوفية بالمغرب، ولقد بينت الرسالة الملكية مقصدية هذا التنظيم، وذلك لضمان استمرارية وتجديد هذا الموروث الديني و الروحي للمساهمة في تخليق المجتمع[6].

---

[6]- انظر برنامج هذا النشاط، والطرق الصوفية المشاركة، ونص الرسالة الملكية في موقع لوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية —لقاءات سيدي شيكر المنتسبين إلى التصوف.

إلا أن هذه التوصيات يجب أن تفعل وأن يجتهد لترسيخها في واقع المغاربة اليوم وأمام هذه الحقيقة ألصقت بالتصوف المغربي دعوى التوظيف، ولقد خاض الإعلام في هذه المسألة ونظرا لعدم الرؤية التاريخية الشمولية التي لا توجد إلا عند المختصين خبطت أقلام بعض الإعلاميين في هذه القضية وأساءت الفهم إلى علاقة التصوف بالدولة لعدم الإحاطة بطبيعة العلاقة التي ربطت الزوايا والطرق بالحكام، إذ كانت في أغلب أوقاتها تقوم على المشاورة، وحل النزاعات، وطلب الدعاء والمشاركة في التنمية الاجتماعية والتأطير العلمي والأخلاقي.

وفي هذا السياق لا نستطيع أن نقدر قدر الخسائر في المعرفة بتاريخ المغرب وحاضره، عند شبابنا خاصة من جراء بعض التصريحات و المقالات غير المسؤولة وغير العلمية بخصوص هذا المكون التاريخي والحضاري للمغرب، وفي غياب شبه تام لإعلام صوفي يصحح الأخطاء ويبين المزالق، ويقدم العلم في صورته الحقيقية.

اختزال التصوف في بحوث علمية أكاديمية

وهذا السلوك وان كان أمرا مهما يفتح المجال أمام طلبة العلم والباحثين لاكتشاف أسرار هذا العلم وخصائصه ومميزاته وأعمال أصحابه، إلا أنه لا يكفي وحده لمعرفة حقيقة التصوف القائمة على المجاهدات والمنازلات والمعاملات، والأحوال، والأذواق وتبدل الصفات والمكابدات، وهو سر تحقيق المجتمع بالكمالات الأخلاقية، والمعاني السامية، لذلك فان من اخص خواص التصوف المغربي انه تصوف عملي يبتعد عن التجريد والإغراق في الكلام في الحقائق و الرقائق. يقول الشيخ زروق "اعتبار المهم و تقديمه أبدا،شأن الصادقين في كل شيء، فكل من طلب من علوم القوم دقيقها قبل علمه بجمال أحكام العبودية منها وعدل عن جلي الأحكام التي غامضها، فهو مخدوع بهواه"[7].

وفي هذا السياق فإن المقررات الابتدائية والثانوية والجامعية تعرف شحا كبيرا في مصادر المعرفة الصوفية وتجلياتها في الثقافة المغربية وهو خلل لم ينتبه إليه واضعو البرامج و المقررات، وغياب التنسيق بين الوزارات والجهات المعنية وفي ذلك تضييع للمتعلمين في هذا الحق التاريخي والمكون الحضاري والديني والروحي للمغاربة.

وتبقى حصة التصوف من الدراسة في بعض البحوث الجامعية المنتمية لوحدات البحث والماستر حول التصوف، وهي قليلة بالنسبة إلى مجموع الوحدات العلمية المتخصصة الأخرى، وما هو مدفون في الخزانات الخاصة والعامة في المخطوطات والوثائق حول التصوف فلا يمكن حصره فكيف تحقيقه

---

[7]- قواعد التصوف احمد زروق الفاسي، القاعدة 18-ص 28، دار الكتب العلمية بيروت-الطبعة الثالثة 2007.

وإخراجه إن الحفاظ على روح وجوهر حقيقة التصوف هو صورة للحفاظ على حقيقة هذا الدين وحقيقة تاريخ هذه الأمة، واعتراف بمجهود رجالاته الذين اظهروا فتوة لا مثيل لها وفي تقوية حصن الأمة الروحي للمغرب، وتثبيت دعائم هويته. وان المغرب وهو يدخل مرحلة تاريخية في التغيير الايجابي نحو تعزيز دولة الحق والقانون والديمقراطية، واثبات الدعائم الحافظة لبناء هذا البلد يصبح المنتسبون إلى التصوف مسؤولين على نشر رسالة التصوف في أبهى حلله وأسمى مقاصده، وإن أي تخلف عن هذه المسؤولية، وأي تشويه لحقيقة هذا العلم هو تشويه لتاريخ هذا الوطن، وفقدان لرسالته النبيلة، وأن أهمية الشرط السياسي والشرط الإعلامي، والشرط الثقافي كفيل بالنهضة بهذا المكون التاريخي والحضاري للمغرب وأن صوت التصوف لا يسمعه إلا الحركية والعمل الدؤوب، ونكران الذات، والتخلي عن استعلاء النفس، وحب الخير للجميع، وعدم التفرقة، وسلوك طريق التوحيد، ولا احد أحق بهذه الأوصاف إلا أهله و المنتسبون إليه. فكل علم إذا لم يجد من يحمله وينشره ويهذبه ويحبه لن ينتشر ولن تعم فائدته. وقد قيل قديما، إن الليث افقه من مالك، إلا أن مالكا كان له تلاميذ حملوا فقهه والليث لم يكن له تلاميذ فضاع فقهه.